بين الإنجيل والتوراة

لا يكفي الإنجيل وحده شاهدا لله. فمعناه لا يستقيم حقا إلا في ضوء الكتب السماوية التي كان السيد المسيح (سلامُهُ علينا) على معرفة بها، كما لم يكن لأتباعه الأوائل إنجيل لأنهم كانوا يستقون معرفتهم عن الله من التوراة والزبور وغيرهما من كتب الأنبياء في اللغة العبرية والترجمة السبعينية في اللغة اليونانية. وقد عُرف هؤلاء الأتباع الأوائل بالمسيحيين نظرا لإيمانهم بأن سيدنا عيسى هو المسيح المنتظر الذي حقق الوعود الربانية الموجودة في الكتب المقدسة. واكتشف هؤلاء عبر القرون أن بعض كتاباتهم عن سيدنا المسيح كانت هي أيضا وحيا من الله، فكان ذلك بمثابة ولادة الكتاب المقدس المتداول عند المسيحيين ويضم بين دفتيه الإنجيل الشريف والكتب السماوية السابقة.

ينبغي أن نضع نصب أعيننا دائما أن ضم الإنجيل وكتب الأنبياء الأولين في كتاب واحد كان من عمل المسيحيين لا اليهود. وبهذا منح الكتاب المقدس المتداول عند اليهود الحياة ليس فقط للإنجيل بل أيضا للتلمود الذي يعتبر أيضا تفسيرا جديدا للكتاب المقدس العبري. لكن لا الإنجيل ولا التلمود يتّفقان تمام الاتّفاق مع الكتاب المقدس العبري، إذ يتضمَّنُ كلاهما رؤيتيْن مختلفتين لعمل الله في خلقه. كما أن معايير تطبيق الكتاب المقدس العبري يحدّدها من نواح عديدة التراث الديني الذي أتى لاحقا، فلا يمكن اعتبار الكتاب المقدس العبري مستقلا عن التطورات التي طالت التراث الديني على مستوى اليهودية والمسيحية والإسلام. ومع ذلك، فمن المهمّ التركيز على فهم النصوص العبرية في حد ذاتها، وتمييز ذلك الفهم عن فهم المفسّرين اللاحقين، لأن الكتاب المقدس العبري يشبه جوهرة ذات أوجه متعددة تنعكس عليها أضواء مختلفة.

واصطلح المسيحيون على تسمية الكتاب المقدس العبري فالعهد القديم. ولا وجود لذكر سيدنا عيسى بشكل مباشر في العهد القديم، بل يذكر سِيَر بني إسرائيل وآمالهم. إلا أن المسيحيين قرؤوه قراءة جديدة في ضوء التعاليم المدهشة لسيدنا المسيح الذي لم يحقق فقط نبوءات الكتاب كما كانت متوقَّعَة، بل كشف من خلال تعاليمه، وتضحيته بحياته وانبعاثه من الموت عن عمق روحاني لم يكن لأحد أن ينفذ إليه لولاه.

فنحن نعلم على سبيل المثال أن والدة سيدنا عيسى وزوجها أخذاه إلى مصر، وهذا الحدث تم تأويله على أنّهُ تحقيق لنبوءة هوشع (متّى 2:13-15 انظر أسفله). ولكن تلك الآية من النبي هوشع لا تتضمَّن أيّةَ نبوءة للمستقبل، بل هي إشارة فقط إلى ما وقع لبني يعقوب عند خروجهم من مصر. فما فعله الحواري

الذي سجّل وحي الإنجيل هو الإشارة بفطنة إلى تماثل تجربة بني يعقوب مع سيرة السيد المسيح. وبهذه التماثلات كشف وحي الله من خلال السيد المسيح عن المغزى الحقيقي للتاريخ البشري.

هوشع 1:11	متى 2:13-15
لَمَّا كَانَ شعبُ بني يعقوب صغيرًا أَحْبَبْتُهُ، ودَعوتُ الابنَ الرُّوحيَّ لي لِيَخرُجَ مِن مِصرَ.	وبَعدَ مُغادَرةِ المَجوسِ البِلادَ، ظَهَرَ ليوسفَ مَلاكٌ في نومِهِ وقالَ لهُ: "خُذ الطِّفلَ وأمَّهُ والجَأْ بِهِما إلى مِصرَ، وامكُثْ هُناكَ حتّى يأتيَكَ خَبَرٌ مِنّي، لأنّ المَلِكَ هيرودُسَ عَزَمَ على قَتلِ الطِّفلِ." فقامَ يُوسفُ على الفَورِ وتَهَيّأ للهُروبِ مَعَ الطِّفلِ وأُمِّهِ مَريمَ إلى مِصرَ لَيلا. وأقاموا هُناكَ إلى حينِ وَفاةِ هيرودُسَ، فنُفِّذَ بذلِكَ كَلامُ اللهِ الّذي جاءَ على لِسانِ النَّبيِّ هوشع: "دَعوتُ الابنَ الرُّوحيَّ لي لِيَخرُجَ مِن مِصرَ."

هذه الإشارة إلى بني يعقوب في مصر تستدعي إلى الذهن تحرير الله لبني يعقوب من نير فرعون، وهو ما أصبح نموذجا لما كان تعالى على وشك القيام به في حياة سيدنا عيسى، مع إحساسه تعالى بمعاناة عباده في مصر، ممّا ينم عن إحدى صفات الله الحميدة.

إحساس الله بمعاناتنا

بدأت الفكرة الكتابية العميقة المتعلقة بإحساس الله تعالى بمعاناة عباده مع سفر الخروج في التوراة:

﴿وبعد زمن طويل، توفّي فرعون، وظلّ بنو يعقوب يئِنّون مِن العبوديّة، وبسببها تضرّعوا ورفعوا صراخهم إلى الله. فسمع الله أنينهم، وحفظ عهده تعالى مع إبراهيم وإسحق ويعقوب (عليهم السلام) وكان الله بمعاناة بني يعقوب عليما بصيرا﴾ (سفر الخروج 2:23-25)

﴿فأوحى الله إليه: إنّي بمعاناة قوم ميثاقي في مصر بصير، ولدعواتهم وصراخهم بسبب ظُلم مسؤوليهم سميع خبير. أجل، إنّي بمعاناتهم عليم، وتجلّيتُ لأُنقذهم من قبضة المصريّين. وأُخرجهم من هناك إلى أرض واسعة تفيض لبنًا وعسلاً﴾." (سفر الخروج 3:7-8)

لقد أنقذ الله بني يعقوب من العبودية في مصر، وأعطاهم شرائع جديدة ليحيوا بها. ولكنهم ما إن تخلصوا من العبودية، وتبوّؤوا مستَقَرّا طيبا في الأرض حتى نسوا ذكر رحمته تعالى، وألقوا فرائضه وراء ظهورهم. فكانوا يذكرون الله عموما في الضيق وعند الشدائد فقط، مُعوِّلين في كل مرّة على سعة صبره كما يخبرنا بذلك سفر القضاة:

"فَصَرَخَ بَنُو يعقوب إِلَى اللهِ وَقَالُوا: "أَخْطَأْنَا فِي حقِّكَ، لأَنَّنَا تَرَكْنَاكَ يَا ربّنا وَعَبَدْنَا الْبَعْلَ. فأرسل اللهُ هذا الوحي إلى بَنِي يعقوب: "إِنَّ الْمِصْرِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَبَنِي عَمُّونَ وأهل فلسطيا وَالصَّيْدُونِيِّينَ وَالْعَمَالِقَةَ وَالْمَعُونِيِّينَ، ضَايَقُوكُمْ فَصَرَخْتُمْ إِلَيَّ. فَمَاذَا حَدَثَ؟ أَنَا أَنْقَذْتُكُمْ مِنْ قبضتهم. وَلَكِنَّكُمْ تَرَكْتُمُونِي وَعَبَدْتُمْ آلِهَةً أُخْرَى. لِذَلِكَ لا أَعُودُ أُنْقِذُكُمْ. رُوحُوا اُصْرُخُوا إِلَى الآلِهَةِ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا، لَعَلَّهَا تُنْقِذُكُمْ مِنْ ضِيقِكُمْ!" فدعا بَنو يعقوب متضرّعين: "اللهّم، أَخْطَأْنَا، فَافْعَلْ بِنَا مَا تَشَاءُ، إِنَّمَا أَنْقِذْنَا هَذَا اليَوْمَ." ثُمَّ أَزَالُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَعَبَدُوا اللهَ، فاستجاب سريعا لدعائهم بسبب بؤْسِهِمْ." (سفر القضاة 10:10-16)

هذا العجز المتكرر عن حفظ وصايا الله أصبح لازمة معروفة في بني يعقوب حتى لم يعد أنبياؤهم يرون من خيار آخر لهم سوى عقاب الله لهم بنفيهم (انظر كتاب النبي هوشع، الفصل 5 على سبيل المثال). كما لمس الأنبياء اللاحقون الحاجة إلى عهد جديد مع الله نظرا إلى فشل بني يعقوب المتواصل في حفظ وصايا العهد القديم، لكن النبي إرميا ذكر أن هذا العهد الجديد لن يكون عهدا خارجيا مكتوبا في كتاب، بل هو كما قال تعالى: ﴿في سريرتهم تكون شريعتي، وفي عقولهم أنقشُها، وأكون لهم ربّا، ويكونونَ أُمّتي﴾ (كتاب النبي إرميا 31: 33)

لم يكن نفي بني يعقوب نهاية فضل الله عليهم، بل أصبح على العكس من ذلك فاتحة فضل جديد كما هو واضح ليس فقط في العهد الجديد المكتوب على القلوب، بل أيضا في إعلانات الله الصريحة عن رحمته الأبدية. يقول النبي أشعيا على سبيل المثال: ﴿بعد أن هجرتُكم لحظةً، وها أنّي أضمُّكم إليّ الآن برحمة فائقَة. لقد رفضناكم حينًا من شدّة غضبنا عليكم، وبرأفة أبديّة أرحمُكم الآن، هكذا أمرتُ أنا ربُّكم منجّيكم. كما أقسمتُ في زمن عبدي نوحٍ أن لا أجعل مياه الطوفان تغطّي الأرضِ مرّة أخرى، ها أنَي أقسم الآن من جديد أنْ لا أغضب عليكم وأعاقبكم. قد تزول الجبال وتتزعزع التلال وأمّا وفائي لكم فلا يزول ولا يتزعزع أبدًا، ولا ألغي ميثاق السلام الّذي أقمتُه معكم". هكذا قال ربّكم الرحيم﴾ (كتاب النبي أشعيا 54: 7-10)

معاناة عبد الله

جاء في سفر النبي أشعيا ﷺ وحي عن عبد الله الذي يُجسِّدُ مراحم الله، ويمثل قوم بني يعقوب (41:8-13). كما نقرأ في أماكن عديدة أنّه يبسط العدل في الأرض (42: 1، 4) ويحمل النور للأمم (42: 6، 49: 6). إلا أن الآية الأخيرة تثير إشكالات هامّة بخصوص هوية ذلك العبد. فهو يُدعى بني إسرائيل في آيات عديدة، لكن الآية 49: 6 تذكر أنه الشخص المختار ﴿لإِقَامَةِ أَسْبَاطِ بني يَعْقُوبَ، لِرَدِّ الَّذِينَ حَفِظْتُهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

هذا التناقض الظاهري ينتفي إذا نظرنا إلى العبد المتألم كرمز لأفراد قوم ميثاق الله المسبيين إلى بابل، حيث جعلهم الله أداة لإعادة الوئام والانسجام داخل مجتمع قوم ميثاق الله الذين لم يبرحوا أرضهم، وتشتت بهم السبل شمالا وجنوبا، شرقا وغربا. ومن ثم تماهت مهمة العبد المتألم مع عمل الله: ﴿أَقُولُ لِلشَّمَالِ "أَطْلِقْهُمْ" وَلِلْجَنُوبِ "لا تَمْنَعْهُمْ." أَحْضِرْ عيالي مِنْ بَعِيدٍ، مِنْ آخِرِ الأَرْضِ﴾ (كتاب النبي أشعيا 43: 6)

ومن خصائص هذا العبد أيضا أنه يعاني نيابة عن الآخرين، ويحقق العدل في الأرض من خلال تلك المعاناة، وذلك تصديقا لقول أشعيا: ﴿إِنِّي نَقَّيْتُكَ وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا تُنَقَّى الْفِضَّةُ، إِنَّمَا فِي بُوتَقَةِ الأَلَمِ اخْتَبَرْتُكُمْ﴾ (48: 10). وتبيّن الآية 53: 11 بُعد التضحية في تلك المعاناة: ﴿وبَعد أن يعاني كلّ هذه الابتلاءات، يرضى عما اكتسبه من عذابه في الحياة. وسيجعل الله من عبده المرتضى، سببًا لقبول كثير مِن العالمين، لأنّه سيطهّرهم من جميع الخطايا﴾ كما أنّ هذا العبد يحمل للناس السلام والشفاء: ﴿لكنّه في الحقيقة أصيب لأنّنا خاطئين، سُحق لأنّنا مذنبون. سلمت حياتُنا حين تقبّل عنّا الضربات وحمل عنّا الجِراحات﴾ (53: 5).

تتسم هذه الإشارات إلى العبد المتألم في سفر أشعيا بنوع من الالتباس، إذ يمكن أن تحيل جميعا إلى أقلية قليلة، مخلصة الإيمان، من بني يعقوب عانت السبي والنفي مثل الآخرين. إذ تشير الآية 3: 10 من كتاب أشعيا إلى وجود صِدِّيقين ضمن الشعب. ومع ذلك عانى هؤلاء الصديقون السبي والنفي مثل باقي الشعب، وكانت معاناتهم شديدة لأنهم لم يقترفوا ما يُبَرِّرُ ذلك العقاب. ولكن النبي أشعيا ﷺ رأى في معاناة هؤلاء علامة نجاة للآخرين، لأن الله كان يدبّر من وراء ذلك أمرا أعظم. فقد كانت عودة المنفيين من بابل إلى أرضهم بمثابة "خروج" ثان، بعد الخروج الأول لبني يعقوب من مصر، إلا أن هذا الخروج الثاني كان خروجا سلميا لا عنف فيه.

يخبرنا النبي أشعيا أيضا أن هذا العبد سوف يتميز بالرفق والوداعة: ﴿ضربه الناس وأذلّوه، فلم ينبُس ببنت شفةٍ، لم يفتح فمه حين أخذوه، كان كالشاةِ تُساقُ إلى الذّبحِ ولا أحد يبكيه، أو مثل حملٍ صامتٍ ذليل بين يدَيْ مَن يجُزّ صوفه ويعرّيه﴾ (53: 7).

﴿ولا يتجبّرَ فيسْحقَ المُستضعَفين في الأرض كشُعلةٍ فتيلة، بل سيرحمهم﴾ (42: 3).

صورة العبد المتألّم في الإنجيل الشريف

تُعتبر الآيات 8: 32-35 من سيرة الحواريين (أي أعمال الرسل) من بين آيات الإنجيل التي تفسّر رؤيا النبي أشعيا للعبد المتألم على أنّها إشارة إلى سيدنا المسيح (سلامُهُ علينا). وفي الوحي الذي سجّله الحواري متّى لا تشير شواهد العبد المتألم إلى آلام السيد المسيح فقط، بل إلى شفائه الأمراض والعاهات أيضا (انظر أشعيا 53: 4 وهي آية أشار إليها متّى 8: 16-17). كما يركّز متّى على سمة الهدوء في العبد المتألم (انظر أشعيا 42: 1-4، الآيات التي اقتبس منها متّى 12: 15-21) وهي سمة تتردّد باستمرار في كتاب النبي أشعيا، وتمثل النقيض لصخب الحرب (انظر أشعيا 30: 15)

هناك مقطع واحد فقط في سيرة الحواريين تكف فيه صورة العبد "كنور للأمم" عن ارتباطها المعهود بشخص السيد المسيح، حيث ترتبط بدل ذلك بالحواريين الذين سيحملون رسالته إلى الأمم (في إشارة خاصّة إلى بولس وبرنابا، انظر سيرة الحواريين 13: 46-47)، والتركيز هنا على حمل العبد لنور الهداية إلى غير اليهود، الذين يدركون بعد سماع رسالة الله لهم أنه تعالى أراد لهم أن يصيروا من الناجين.

لكن في رسالة الحواري بطرس الأولى 2: 21-23 يصبح العبد حسب صورته في أشعيا 53: 9 نموذجا يحتذى بالنسبة إلى جميع المؤمنين، فليس لهؤلاء أن يرتكبوا المعصية، وأن يردوا الشتيمة بالشتيمة، بل عليهم أن يضعوا ثقتهم الكاملة في الله. وباختصار يمكن القول إنّ نموذج الاتّباع في رسالة بطرس الأولى هو امتداد لتحديات الإيمان الواردة في سفر النبي أشعيا: إقامة العدل، والاعتماد على الله وحده، وعدم الخوف من أية قوة بشرية حتى لو أدى ذلك بالمؤمنين إلى معاناة الظلم. ﴿إنّ الّذينَ يَحتَمِلونَ الألمَ وقَسوةَ الظُّلمِ في سَبيلِ اللهِ، يَنالونَ مَرضاتَهُ تَعالى﴾ (رسالة بطرس الأولى 2: 19). ﴿ولئِن ظُلِمتُم في سَبيلِ إرضاءِ اللهِ، فهَنيئًا لكُم! فقد وَرَدَ قَولُهُ تَعالى على لِسانِ نَبيِّهِ أشعيا ﷺ: لا تَخافوا مِن تَهديدِهِم ولا تَضطَرِبوا﴾ (رسالة بطرس الأولى 3: 14)

الإيمان والسلوك

تتّفق سجلات الإنجيل جميعا على أن أتباع السيد المسيح مدعوون إلى التحلي بالعدل، والاهتمام بالمساكين، تماما كما أوصى الله أنبياء بني إسرائيل من قبل. إلا أن الحواري بولس يؤكد أن تقاليد أهل التوراة لا تُلزِم الأمم الأخرى، والقبول عند الله لا يكون على أساس الانتماء إلى أهل التوراة، بل بسبب أمانة سيدنا عيسى المسيح. ثم يقترح على غير اليهود إن هم طلبوا نموذجا للصلاح أن يركزوا نظرهم على النبي إبراهيم لا على موسى، وتذكر الآية 15: 6 من سفر التكوين أنّ الله تقبّل إبراهيم على أساس إيمانه قبل أن تُعطى الشريعة لبني يعقوب، تلك الشريعة التي ميّزتهم عن بقية الأمم. هكذا يخبر الحواري بولس أهل غلاطية: ﴿إنّ اللهَ أوحى في الكِتابِ أنَّـهُ يَجعَلُ مِن غَيرِ اليَهودِ عِبادًا صالِحينَ لأنّهُم يَتَوَكَّلونَ على وَعدِهِ، ولقد كَشَفَ تَعالى هذِهِ البُشرى لإبراهيمَ مُنذُ زَمانٍ بَعيدٍ حينَ قالَ: بِكَ سَتَنعَمُ شُعوبُ الأَرضِ كُلِّها ببَرَكاتي﴾. (رسالة غلاطية 3: 8)

إلا أنه ينبهنا إلى أن التحرّر من التقاليد اليهودية لا يعني الانغماس في المعاصي، بل إن هذا التحرّر يرتكز على مبدإ أساسي في التوراة هو المحبّة: ﴿أَحبِب جارَكَ كَما تُحِبُّ نَفسَكَ﴾ وعلى ثمر الحياة الذي تنتجه روح الله: ﴿المَحبّةُ والفَرَحُ والسَّلامُ والصَّبرُ واللُّطفُ والصَّلاحُ والأمانةُ والوداعةُ والعَفافُ﴾ (رسالة الحواري بولس إلى أحباب الله في غلاطية 5: 22-23)

أمّا الحواري يعقوب في رسالته فيؤكد أكثر من بولس على الجانب الأخلاقي. فهو يستشهد أيضا بنموذج إيمان النبي إبراهيم، إلا أنّ المغزى من الآية 15: 6 من سفر التكوين يصبح مختلفا. فإبراهيم ﷺ آمن بالله قبل أن تنزل التوراة على النبي موسى، لكن الآيات 2: 20-24 من رسالة يعقوب تؤكد أن الله اختبر طاعة النبي إبراهيم إلى أقصى الحدود عندما طلب منه أن يقدم ابنه ذبيحة. وبهذا أمكن القول إن إيمان المؤمن لا ينفصل عن سلوكه.

وهنالك ثلاثة سجلات لسيرة السيد المسيح في الإنجيل تشترك في اختزال شريعة التوراة إلى وصيتين أساسيتين موجودتين فيها. ففي سجل لوقا يسأل أحد الفقهاء سيدنا عيسى عن السبيل إلى دار الخلد، ولكنه (سلامُهُ علينا) عوض أن يجيبه مباشرة يطلب منه أن يلخّص التوراة، فيذكر الفقيه الوصيتين: تحب الله بكل كيانك (سفر التثنية 6: 5)، وتحب الجار مثل نفسك (سفر اللاويين 19: 18). عندئذ يخاطبه السيد المسيح قائلا: ﴿إن عملتَ بذلك، فُزتَ وكنتَ مع الخالدين﴾. (لوقا 10: 28). ممّا يدل على أن الإيمان لا ينفصل عن السلوك. ولكن الفقيه يعود ليسأل سؤالا آخر ذا أهمية "وَمَن المقصودُ بالجارِ؟!"

غير أن سيدنا عيسى (سلامُهُ علينا) لا يرد على هذا السّؤال بتعريف فقهي، بل بحكاية عن السامري الطيب. حكاية يبدو فيها أحد أحبار اليهود أقل رحمة من الرجل السامري، وهو أمر صدم اليهود الذين تعودوا النظر إلى السامريين باعتبارهم قوما ضالين. هذه الحكاية تخلخل الأفكار المسبقة لدى المتأمل فيها. وسيدنا عيسى عندما يتحدى بها الطهرانية الزائفة لأحبار اليهود إنما يفعل ذلك أسوة بأنبياء بني إسرائيل الذين سبقوه (انظر مثلا كتاب النبي أشعيا 1: 11-17، وكتاب النبي عاموس 5: 21-24). والحكاية تتضمّن نقطتين أساسيتين على الأقل: أولا انعدام التعارض بين محبة الله ومحبة الغرباء، وثانيا احتمال تعلّم محبة الغرباء ممّن لم نتوقّع منهم أبدا أن يعلمونا تلك المحبة.

وإذا نحن أردنا أن نحكي قصصا عن جيراننا على منوال حكاية السامري الطيب، فإننا سنجد أنفسنا أمام قصص تتضمن علاقات ود ورحمة بين أناس مختلفين عن بعضهم بعض، وغرباء عن بعضهم بعض. ذلك أن الغريب هو الشخص الذي نجهل هويته، ولا نعرف شيئا عن تجربته في الحياة، أو عن معتقده، أو فضائله، أو معاصيه. كما يمكن القول إن حكاية سيدنا المسيح تصف وضعا تنتفي فيه الشكوك العميقة، والأفكار المسبقة، والذكريات الأليمة.

لقد كانت هناك اختلافات عميقة بين السامريين واليهود في القرن الأول للميلاد، كما هو الحال اليوم ما بين إثنيات مختلفة في العالم. لكننا نقرأ في الإنجيل، في الرسالة إلى العبرانيين: ﴿ولا تَغفَلوا عن ضِيافةِ الغُرَباءِ (*philoxenia* في النص اليوناني الأصلي- "حب الآخر")، فقد استَضافَ بَعضُ الأنبياءِ مَلائكةً وهُم لا يَدرونَ﴾. (الرسالة إلى العبرانيين 13: 2). فالقارئ مدعو هنا إلى استحضار قصة ضيوف النبي إبراهيم في التوراة، في الفصل 18 من سفر التكوين. وهي القصة التي تعلّمنا حبّ الله، وحب الآخر بطرق خارجة عن مألوف ثقافتنا أو شريعتنا. فلقد أدرك النبي إبراهيم في تلك القصة، كما أدركنا نحن أيضا، أن ملائكة الرحمن قد يوجدون خارج دائرة كل توقع.